العناصر النفسية

في سياسة العرب

لشفيق جبري

حلقة من « سلسلة اقرأ » استعرض فيهـــا الأستاذ « شفيق جـبري » بعض المواقف والمواقع من تاريـــخ صدر الاسلام وتاريخ بني أمية ، مبرزاً فيهـا العنصر النفسي الذي قامت عليه ، ليكشف عـــن دراية صاحب الموقف أو الموقعة بذلك العنصر النفسي أو عـدم درايته ، وعن أثر العلم بهذا العنصر أو الجهل به في هـذا الموقف أو الموقعة .

وهو يبين عن غرضه من تأليف هذا الكتاب في مقدمته حين يقول :

« وغايتي في هذا الكتاب أن أبسط ما خطر ببالي من الخواطر في أثناء مطالعتي للأمور التي ذكرتها، وليس اهتمامي بأن أكون مصيباً في خواطري على قدر اهتمامي بأن أمهد للقارىء الكريم سبيلا إلى فهم التاريخ من الناحية النفسية ، فاذا استطاع بعد نظرة في نماذج السياسات التي سأذكرها أن يتصفح التاريخ على النحو الذي تصفحته فقد بلغت ما أريد ، وسواء على بعد هذا أكان يشاركني في آرائي أم كان ينفرد بآرائه ، إنما المهم بعد هذا اليوم أن نقرأ التاريخ من نواحي عناصره النفسية حتى يكون فهمنا له أتم ، ونظرنا في فلسفته أكمل » .

وما من شك في أن لابحث الذي اتجـه إليه الأستاذ « جبري » قيمته في تنبيه الذهـن إلى العوامل النفسية في أثناء مطالعة التـــاريخ ، والحكم على أشخاصه وأحداثه ، وفي توسيع مجال النظر إلى هذه الأحداث وأولئك الأشخاص ، فـلا يكون ميدانها الخارجي هو وحده الذي تضطرب فيه، إنما تكون هناك السراديب والدروب والمنعرجات النفسية الخفية التي تتصل بهذا الميدان المكشوف !

وهذه ميزة الدراسات التاريخية الحديثة على السرد التـــاريخي القديم . وفي المكتبة العربية الحديثة دراسات تاريخية ، وتراجم للاشخاص ، تقوم كلها على دراسة العنصر النفسي وإبرازه على خير الوجوه . فدعوة الاستاذ شفيق جبري متحققة فعلا في تلك الدراسات التي كثرت في الاعوام الأخيرة كثرة ملحوظة . أذكر منها على سبيل المثال مجموعة « العبقريات » للعقاد ، و « محمـد علي الكبير » لشفيق غربال ، و « تلاقي الأكفاء » لعلي أدهم ، و « بشار » للمازني ، و « أبو نواس » لعبد الرحمن صدقي ، وسواها، ولا أنسى دراسات الأستاذ شفيق جبري نفسه لبعض الشخصيات الأدبية .

★ ★ ★

وللاستاذ المؤلف توفيقاته الكثيرة في هذا الكتيب الصغير . تارة في تسجيل نظريات عامة ، وتارة في تحليل مواقف خاصة ... ولكـن هناك ما نختلف فيه كل الاختلاف !

من أمثلة التوفيق في تسجيل نظريات عامـــــة ، ماجاء في مقدمة الكتاب عن سياسة الناس :

« لا شي أصعب من سياسة الناس ، لأن الرجـل عادة مركب من شخصيات شتى لا تظهر إلا في أحوال معينة ، وما هذا الثبات الذي نراه في شخصية كل واحد منا إلا شكل ظاهر لاغير ، تثبت هذه الشخصية بثبات أحوال معينة ، فاذا تغيرت هذه الأحوال تغيرت شخصية الرجل ، فالهادىء قد يصبح ثائراً ، والرقيق قـــد يصبح قاسياً ، والفاضل قد تتناثر فضائله . فاذا جهل رجال السياسة هذه الخفـايا النفسية ، فان جهلهم يؤدي إلى الاخفاق في سياستهم ، أو إلى الذهاب بحياتهم ، أو إلى القضاء على بلادهم في بعض الأحيان »

فالشطر الأول من هذه القضية صادق نافذ دقيق ، وهو يتضمن لفتة بارعة إن لا يكن الأستاذ جبري هو أول من يتنبه إليهـا ، فهو — في اللغة العربية — أول من يبرزها في هذا التبلور الحاسم في بضع كلمات .

لقد اعتدنا أن نتحدث عن « الشخصية » كأنها كلٌ متماسك ذو طابع دائـــم واعتدنا أن ننتظر من هذه الشخصية استجابات معينة للمؤثرات المتعددة ، تتفـق مع هذا الطابع ... ولـكن الملاحظة الدقيقة الشاملة لتصرفات كل شخصية تهدي إلى أن هذا الطابع ليس أبديا ، وليس جامدا . فهناك حالات كثيرة نسميها حالات شاذة في حيـــاة هذه الشخصية . وهي في الواقع ليست شـاذة . إنما هي جزء من هذه الشخصية أصيل فيها كالأجزاء التي نعدها طبيعية بالقياس إليها ، وكل ما هنالك أنها حالات كامنة لا تنكشف إلا في مواعيدها . وقـــد تكون على نقيض الخصائص الشائعة عن شخصية معينة .

وأحسب أن هذه الملاحظة النافذة تهم المتخصصين في « علم النفس » كما تهم كل دارس للشخصيات في مجال التاريخ أو الأدب . والتطبيقات عليها تؤلف فرعا من « علم النفس » تلذ دراسته وتشوق !

أما الشطر الثاني الذي يقول فيه :

« فاذا جهل رجال السياسة هذه الخفايا النفسية ، فـــان جهلهم يؤدي إلى الاخفاق في سياستهم ... الخ » .

فنحسبه يحتاج إلى دقة في العبارة ، بل إلى دقة في النظر ، فليس المهم أن يعرف رجال السياسة هذه الخفايا النفسية أو يجهلونها . إنما المهم أن يدركوهـــا ، وأن يستطيعوا التصرف المناسب في اللحظة المناسبة وفق ما يدركون !

وإلا فالمعرفة وحدها لا تكفي . وكم من أناس يعرفون الدوافـع النفسية ، ثم لا يعرفون التصرف المناسب . أو يعرفونها ويعرفون التصرف المناسب ، ولـكنهم لا يملكون الاقدام عليه . إمـــا لضعف فيهم عن الاقدام ، واما لعفة فيهم عن استخـدام بعـض الأسلحة ، وإما لعوامـل « نفسية » شتى لا تجعلهـم ينفذون ما يرتؤون !

و « ميكافيلي » صاحب كتاب « الأمير » الذي يعد استاذاً من الوجهة النظرية لمذهب « الغاية تبرر الوسيلة » يروى عنه أنه كان عاجزاً ضعيف الحيلة قليل الحول،

في حياته العملية ، حتى مع « أميره » « قيصر بورجا » الذي ألف له هذا الكتاب، ليرشده إلى سياسة الأفراد والجماهير !

ومما يدعونا إلى زيادة البيان لهذه النقطة أن الأستاذ شفيق جبري في تطبيقاته بعد ذلك في الكتاب ، لم يفرق بين معرفة العناصر النفسية ، والتصرف العملي حسب هذه المعرفة . فعد كلّ من لم يتصرف عمليا وفق الظرف النفسي جاهلا لهذا الظرف النفسي . كالامام علي مثلا . . . وذلك موضوع سنناقشه في حينه . فحسبنا هنا إذن ذلك البيان .

ومن أمثلة التوفيق في تحليل مواقف خاصة ، ما عرفه من مواقف النبي صلى الله عليه وسلم ، مثال ذلك قوله :

« قالت سيدتنا عائشة : دخل أبو بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو مضطجع ، وعليه ثوبه ، فقضى حاجته وخرج ، ودخل عمر ، فقضى حاجته وخرج ، ثم جاء عليّ فقضى حاجته وخرج ، ثم جاء عثمان ، فجلس له رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالت له عائشة : لم تصنع هذا بأحد . فقال : إن عثمان رجل حيي ، وإني خشيت إن أذنت له على تلك الحال أن لا يبلغ إليّ في حاجته » .

ثم يعلق على هذا الخبر فيقول :

« قد نمر بخبر مثل هذا الخبر ، فاما أنا لا نحتفل به ، وإما أنا لا نهتدي إلى جلالة قدره في معرفة عبقرية سيدنا محمد ، فهو عنوان من عناوين هذه العبقرية . وما أظن أن الذين كتبوا في سيرة الرسول أهملوا الاهتمام بأشباه هذا الخبر ، ولو فعلوا لما كانت كتابتهم كتابة . فقد كان سيدنا محمد عالماً بنفوس جماعته وصحابته واقفاً على دقائق أخلاقهم ، محيطا بغوامض أمزجتهم ، يعلم ما يغضب له فلان من الصحابة ، وما يرضى به فلان ، ويعرف ما يستثير فلانا وما يهدأ به فلان . فعامل كل واحد منهم المعاملة المناسبة له ، اللائقة به ، حتى أشربت القلوب محبته ، وانطوت على طاعته ، فلم ينفض أحد من حوله . وهذا منتهى الحذق في سياسة الناس ... »

وكنت أود أن أقف عند تسجيل التوفيق للاستاذ جبري في اختيار المثال في

موضعه المناسب . ولكني مضطر — بعد اثبات هـــذا التوفيق — أن أتجاوزه إلى شيء في تعليقه عليه !

لم أكن أحب أن يكون حديثه عن «الذين كتبوا في سيرة الرسول» بمثل هذه اللهجة . فما الداعي لأن يقول : «ما أظن أن الذين كتبوا في سيرة الرسول أهملوا الاهتمام بأشباه هذا الخبر .. » . إن الذين كتبوا في هـذه السيرة في العصر الحديث معروفون . وكتبهم كذلك معروفة . والمفروض أن يكون الاستاذ جبري قد اطلع عليها . بل من واجبـــه أن يكون قد اطلع عليها وهو بصدد أن يؤلف كتابا عن «العناصر النفسية في سياسة العرب» فان لايكن فعل ، فقد كان من واجبـه قبل أن «يظن» أو «لايظن» أن يرجع إلى هذه الكتب ، ولو قـــد فعل لوجد أنهم أكثروا من الحديث في هذا الموضوع ، وأكثروا من الأمثلة والنماذج ؛ ونظروا إلى المسألة في محيط أوسع من أن يكون «الحذق» وحده هو الدافع لمحمد على تصرفاته مع قومه وغير قومه . وإنما رحابة النفس وسمو القصد ، وخير البشرية كذلك ... والاطلاع الدقيق هو واجب التحقيق ، الذي لايعفي المؤلف منه ظن ولا افتراض .

* * *

وأخيراً نصل إلى مواضع الاختلاف الرئيسية :

إن أول ما يلاحظه القارىء لهذا الكتيب ، أنه تصدى لموضوع ضخم لاتمكن دراسته في هـــذا الحيز الضيق ، وهذا يجر إلى أن تعرض موضوعات كبيرة ثم لاتدرس الدراسة الواجبة لها ، فينالها التشويه أو خطأ الحكم ، أو اقتضاب أسبابه والضرر من هذا النهج كبير .

والملاحظة الثانيـة — ولعلها ناشئة عن الأولى — أن المؤلف يصدر أحكاماً ضخمة حاسمة في يسر وسهولة وبدون اكتراث ، وبلا تحرج . هـذا التحرج الذي توجبه عوامل كثيرة .

والملاحظة الثالثة — وقـــد أشرت إليها من قبل — : هي عدم التفرقة بين المعرفة بالعنصر النفسي ، والقدرة على التصرف بما توجبه هذه المعرفة .

والملاحظة الرابعة أن روح « النفعية » تنال من الاستاذ الترحيب والتنويه في كثير من الأمثلة التي ضربها ، وفي كل تعليق عليها . وهذا اتجاه خطر في تقويم الأشخاص والأحداث ...

وندع هذا الاجمال إلى التفصيل بذكر الأمثلة على ما نقوله .

* * *

تتحقق الملاحظة الأولى في الكتاب كله . وحسبك أن تعلم أن الاستاذ المؤلف قد أصدر أحكاماً حاسمة على محمد ﷺ ، وعلى خلفائه رضي الله عنهم ، وعلى معاوية وعمرو بن العاص ، وبشير بن سعد ، والمغيرة بن شعبة ، وزياد بن أبيه ، وعبد الملك ابن مروان ، والحجاج ، وموسى بن نصير ، ومروان بن محمد ... كل أولئك في عشر ومئة صفحة ، إذا نحن أخرجنا المقدمة والتعقيب ، وفصلا عن سياسة المال ، من الكتاب الذي لا تتجاوز صفحاته أربعا وأربعين ومئة صفحة من قطع الجيب في سلسلة اقرأ » .

ولو كان الأمر أمر حادثة تشرح ، وموقف يروى . لكان في هذا الحيز الكفاية ، ولكنه ـ كما قلت ـ أصدر أحكاماً حاسمة ضخمة على هذه الشخصيات ، ومدى معرفتها أو جهلها بالعناصر النفسية في سياستها . وهذا تقويم نهائي لكل شخصية من تلك الشخصيات التي يحيط بها عدد لا يحصى من العوامل والأسباب والخفايا ، ولا بد من دراسة هذا كله قبل الحكم عليها ذلك الحكم القاطع الصريح.

* * *

أما الملاحظة الثانية ، فتبدو على أتمها في الحكم على موقف «عمر بن الخطاب» من العهد بالخلافة ، وندع المؤلف يبين رأيه في هذه السطور :

«مرض رسول الله ﷺ مرضه الذي قبض فيه فأمر أبا بكر أن يصلي بالناس ، فلم يزل أبو بكر يصلي بالناس حتى اليوم الذي مات فيه الرسول ، ثم كان من أمر السقيفة ما كان ، وجرى فيها من تنازع المهاجرين والأنصار ما جرى حتى تمت

البيعة لأبي بكر .

« ثم مرض أبو بكر المرض الذي مات فيـــه ، فاستخلف على المسلمين عمر ابن الخطاب .

« ثم طعن عمر ، فدخل عليه وهو في البيت من جراحه ، وسألوه أن يستخلف عليهم ، فكيف كانت سبيله في هذا الاستخلاف ؟

« لم يخل استخلاف عمر على المسلمين من كثير من الحيرة والتردد ، فهو لم يشأ أن يحمل المسلمين حياً وميتاً ، ثم رأى أنه إذا استخلف فقد استخلف من هو خير منه ، يعني أبا بكر ؛ وإذا ترك الأمر فقد تركه من هو خير منـه ، يعني النبي ؛ ثم رأى أنه لو أدرك أبا عبيدة بن الجراح لاستخلفه ، وولاه ، ولو أدرك معـــاذ بن جبل لاستخلفه ، ولو أدرك خالد بن الوليد لولاه ، وفي هذا كله كثير من الحيرة . ثم رأى في عليٍّ بطالة وفكاهة ، وفي طلحة زهواً ونخوة ، وفي عبد الرحمن بن عوف صلاحاً مع ضعف ، ورأى أن سعداً صاحب مقنب وقتال ، لا يقوم بقرية لو حمّل أمرها ، ورأى أن الزبير لقيس ، مؤمن الرضى ، كافـر الغضب ، شحيح ، ورأى أن عثمان لو ولي الخلافة لحمل قومه بني أبي معيط على رقاب النـاس ؛ ثم سأل أن يدلوه على برٍ تقي يوليه ؛ ثم صح عزمه على أن يستخلف النفر الذي توفي الرسول وهو عنهم راض . فجعل الخلافـة شورى بين هؤلاء الستة من المهاجرين الأولين ، وهم علي وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص . ومنهم من حدث أن سعداً لم يكن في الشورى ، أما عبدالله بن عمر فقـد أدخله أبوه فيها على أنه خارج من الخلافة وليس له إلا الاختيار .

« كل هذا يدل على الارتباك ، ولقد كانت هذه الطريقة سبيلاً إلى المخاصمة ، فقد تشاحّ أصحاب الشورى على الخلافة ، وأخروا إبرام الأمر ، ورجا كل واحد منهم أن يكون خليفة ، حتى إن أبا طلحة بكى وقال : كنت أظن بهم خلاف هذا الحرص ، إنمـا أخاف أن يتدافعوها ، فلقد طال تناجي القوم وتناظرهم ، ودفع كل واحد منهم صاحبه عنها ، وكاد يؤدي هذا الأمر إلى الفتنـة ، فقد تطلع الناس إلى

معرفة خليفتهم وإمامهم ، واحتاج من أقام لانتظار ذلك من أهل البلدان إلى الرجوع إلى أوطانهم ،

« ولسنا ندري ما الذى حمل سيدنا عمر على الوقوع في هذا الارتباك ، وقد كان قادراً على أن يستخلف أصلح القوم ، وهو يعرفهم واحداً واحداً ، ويعرف عيوبهم وفضائلهم ، ولكنه عدل عن ذلك . وإذا لجأت إلى الحرية في الكلام قلت : خاف التبعة ففر منها ، فان جعل الأمر شورى بين جماعة كل واحد منهم يريد الخلافة لنفسه مخالف للقواعد النفسية في السياسة ، ولقد أنقذ الله المسلمين من فتنة الشورى وكانوا في غنى عنها لو حزم عمر .

« لاشك في انتخاب الرعية لراعيها أو الأمة لرجال الحكم فيها على تعبير هذا العصر إنما هو أرفع ما وصل إليه عقل البشر من أشكال الحكم الديمقراطي ، ولكن هذا النوع من الحكم لم يتكامل بعدُ في أيامنا هذه ، فجدير به أن يكون في أيام عمر أقل تكاملا ، ففكرة عمر في أن يجعل أمر المسلمين شورى بين ستة يتزاحمون على الخلافة غلطة نفسية ، وقد أدرك معاوية هذه الغلطة ، ومثله لا يكاد يفوته شيء من أسرار السياسة النفسية ، فقد ذكروا أن زياداً أوفد ابن حصين إلى معاوية ، فأقام عنده ما أقام ؛ ثم إن معاوية بعث إليه ليلا فخلا به ، فقال له : يا ابن حصين ! قد بلغني أن عندك ذهناً وعقلاً ، فأخبرني عن شيء أسألك عنه ، قال : سلني عما بدا لك . قال : أخبرني ما الذي شتت أمر المسلمين وملأهم وخالف بينهم ؟ قال : نعم ، قتل الناس عثمان ، قال : ماصنعت شيئاً . قال : فمسير علي إليك وقتاله إياك ، قال : ما صنعت شيئاً ، قال : فمسير طلحة والزبير وعائشة وقتال عليّ إياهم . قال : ما صنعت شيئاً ، قال : ما عندي غير هذا يا أمير المؤمنين . قال : فأنا أخبرك ، إنه لم يشتت بين المسلمين ولا فرق أهواءهم إلا الشورى التي جعلها عمر إلى ستة نفر ، وذلك أن الله بعث محمداً بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، فعمل بما أمر الله به ، ثم قبضه الله إليه وقدم أبا بكر للصلاة ، فرضوه لأمر دنياهم إذ رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمر دينهم ، فعمل بسنة رسول

الله صلى الله عليه وسلم ، وسار بسيرته حتى قبضه الله ، واستخلف عمر ، فعمل بمثل سيرته ، ثم جعلها شورى بين ستة نفر ، فلم يكن رجل منهم إلا رجاها لنفسه ، ورجاها له قومه ، وتطلعت إلى ذلك نفسه ، ولو أن عمر استخلف عليهم كما استخلف أبو بكر ما كان في ذلك اختلاف .

« هذا هو الرأي المختمر ، فالشورى غلطة نفسية رحم الله من غلطها » .

بمثل هذا الجزم الحاسم يصف موقف عمر . وأيسر الانصاف كان يقتضي أن يحسب حساب الزمن المتطاول بين عهد عمر وعهدنا ؛ وحساب العوامل الكثيرة المتشابكة في الموقف ؛ هذه العوامل التي قد يكون معظمها قد ضاعت معالمه ، والباقي بين يدينا منها قليل . والشخصية التي يصدر عليها مثل هذا الحكم السريع شخصية جليلة ضخمة ، فذة في تاريخ الاسلام كله ، فلا أقل من مثل هذا الاحتياط .

على أنني لست من أنصار القداسة المطلقة للشخصيات الاسلامية ، ولست أعني مما تقدم أن أحرم المعاصرين حق الحكم على هذه الشخصيات . ولكني أريد أن تتوافر أسباب الحكم كاملة . ولقد كان هذا الجزم الحاسم يقتضي من المؤلف بسط الكثير من ظروف الموقف ، وتجليتها في سعة من المجال ليجيء الحكم مستوفياً أسبابه ، وليقنع الناس بأحقيته .

على أنه لم يرد حتى أن يلتفت إلى الأسباب التي أثبتها في روايته . ولو التفت إليها لحماه ذلك من الجزم القاطع في قوله : « فالشورى غلطة نفسية رحم الله من غلطها » ! وفي قوله كذلك : « لو حزم عمر » !

وحيرة عمر — كما يسميها — كانت لها أسبابها الوجيهة كما يقرر : « فهو لم يشأ أن يحمل المسلمين حيا وميتاً » . وهذا عنصر نفسي في نفس عمر له تقديره . « ثم رأى أنه إذا استخلف فقد استخلف من هو خير منه ، يعني أبا بكر ، وإذا ترك الأمر فقد تركه من هو خير منه يعني النبي ». ووجود هاتين السابقتين القريبتين كفيل بأن يجعل الجزم القاطع لا محل له. وقد اختار عمر طريقة تجمع بين الطريقتين،

لأن ظرفه وموقفه لم يكن كواحد من الاثنين قبله . فمحمد صلى الله عليه وسلم لم يوص لأحد لئلا تصبح هذه سنة، ولعوامل أخرى كثيرة وكان واضحا أن أبابكر هو أول مؤمن به من الرجال ، وهو صاحبه في الغار ، وهو « الصديق » فقدمه في اللحظة الأخيرة إلى الصلاة . وقد اتجهت الأنظار إليه يوم السقيفة لهذه الأسباب جميعاً ولعوامل الموقف السريع في هذا اليوم . وأبو بكر أوصى لعمر ، لأن حروب الردة كانت قريبة ، فلم يكن من المأمون أن يترك أمر المسلمين بعده لأي نزاع ، وقوائم الاسلام تهتز وهي في حاجة إلى التوطيد . وكان عمر هو أبرز رجل بعد أبي بكر وذلك إذا استثنينا عليّا وحوله كانت ملابسات كثيرة في نفوس القوم — ولو لم يكن أبو بكر حيا بعد النبي لكان عمر هو رجل يوم السقيفة . فلم يكن أبو بكر إذن ليخشى معارضة لعمر بعده ، في الوقت الذي يحتم عليه الموقف أن يختار خليفته . أما عمر فلم يكن موقفه كواحد من سلفيه العظيمين. فالاسلام امبراطورية ثابتة ولا خوف عليها من التشاور . وليس أحد بعده بارزا يرتضيه الجميع بلا منازع . كما كان هو بعد أبي بكر. والرجال الذين مات النبي صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ـ وهم الذين جعل عمر الشورى فيهم ـ ليس فيهم الأفضل إطلاقا في ضمير عمر — وقد تحدث عن كل منهم بما يفيد ذلك — فلم يبق له إلا أن يجعل الأمر شورى فيهم . وقد فعل .

وليس ما نقله الأستاذ من أقوال « معاوية » حجة . فمعاوية كان يريد بهذا القول التمهيد لاستخلاف ابنه يزيد . وهنا عنصر نفسي فات الأستاذ جبري ملاحظته !

ولست أجزم الجزم القاطع برأيي هذا — كما فعل الأستاذ في تخطئة عمر — ولكني أريد فقط ألا نسارع إلى الحكم القاطع ، وبين يدينا كفتا الميزان — على الأقل — تتأرجحان !!!

★ ★ ★

أما الملاحظة الثالثة فأظهر دليل عليها حكمه على « علي بن أبي طالب » بأنه كان يجهل العناصر النفسية في صراعه مع معاوية . ذلك حين يقول :

« إذا ثبتت الحاجة إلى معرفة الأمور النفسية في سياسة أحد من العمال والخلفاء . فما ثبتت هذه الحاجة مقدار ثبوتها في سياسة « علي بن أبي طالب » — كرم الله وجهه — .

أو حين يقول :

« لم تكن معرفته بالأمور النفسية على قدر صراحته . فاذا لم تنجح سياسته النجاح كله ، فهذا سببه أنه لم يخطر على باله أن طلب الحقوق يستلزم كثيراً من حسن الموارد والمصادر . فليس كل صاحب حق في هذه الدنيا بواصل إلى حقه على مثل هذه السبيل ومن بعض كلامه : « لا يزيدني كثرة الناس حولي عزة ، ولا تفرقهم عني وحشة ، لأني محق » . فهذا كلام رجل لا يبالي بأساليب السياسة في طلب الحق ولا يهتم بروح الجماهير » .

أو حين يقول :

« وكما صعب عليه إدراك أسرار السياسة من حيث الكثرة والقلة فيها ، فقد صعب عليه إدراك هذه الأسرار من حيث عمل المال في الجماعات . قام رجال من أصحابه فقالوا له : يا أمير المؤمنين ! أعط هؤلاء هذه الأموال ، وفضل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي ممن يتخوف خلافه على الناس وفراقه . فاذا استقام لك ما تريد عدت إلى أحسن مما كنت عليه من القسم . فقال علي : أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه من الاسلام، فوالله لا أفعل ذلك ما لاح في السماء نجم ! » .

ثم يعلق على ذلك فيقول :

« لم يدر نضر الله عظامه ، أن الناس عامة إنما همهم حطام هذه الدنيا ، فكان يعز عليه أن يعتقد أن الناس يدورون كيف دارت مصالحهم ومنافعهم ، فلم يعاملهم كما يجب أن يعاملهم رجل السياسة ، وإنما عاملهم كما يعاملهم رجل الأخلاق ، فكان من عواقب هذه المعاملة شكواه منهم في كل كلام ، وفي كل خطبة » .

« وعلى كل إذا قل نصيبه من معرفة نفوس البشر على حقائقها ، ومن قرنه السياسة بهذه المعرفة ، فلم يقل نصيبه من غير هذه الفضائل » .

وهكذا يحكم على علي – كرم الله وجهه – بأنه كان يجهل النفس البشرية لمجرد أنه لم يستخدم الوسائل السياسية التي استخدمها خصماه : «معاوية وعمرو بن العاص»

وأبسط نظرة تكشف أن هناك فارقاً كبيراً بين معرفة السلاح ، واستخدام هذا السلاح . فلم يكن الفرق بين علي وبين خصميه أنه يجهل النفس البشرية وأنهما يعرفانها . إنما كان الفرق في حقيقته هو الرضى باستخدام كل سلاح ، يرضاه الخلق العالي أو يأباه . فعلي لم تكن تنقصه الخبرة بوسائل الغلبة ، ولا بنوازع النفوس البشرية وأهوائها . ولكنه لم يكن يتدنى لاستخدام الأسلحة القذرة جميعاً

وفي رده على من أشاروا عليه بتوزيع المال لرشوة الضمائر ما يكفي : « أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه من الاسلام . فوالله لا أفعل ذلك ما لاح في السماء نجم » ! فحين قالها لم يكن جاهلا « أن الناس عامة همهم حطام هذه الدنيا » . ولكنه كان مترفعاً عن استخدام سلاح تستقذره نفسه الكريمة ويستخدمه خصمه بلا تحرج !

وكذلك رده على « ابن عباس » حينما استصوب إشارة « المغيرة بن شعبة » على علي بأن يولي الزبير البصرة ويولي طلحة الكوفة ، يدل على هذا ، فلقد قال : « ولو كنت مستعملا أحداً لضره ونفعه لاستعملت معاوية على الشام » فهو إذن لم يكن يجهل ما يضر وما ينفع ، ولكنه كان يأبى ويترفع !

وقد عاد الأستاذ جبري ليقول : « أجل ، إنا نظلم علياً إذا جردناه من معرفة الناس وبواطنهم » بعدما رأى أن هناك حوادث وأقوالا تقطع بفطنته إلى نوازع الناس وبواطنهم . ولكنه عقب على هذا بقوله : « إلا أنه كان قليل الحظ من الاستفادة من المعرفة النفسية في السياسة » دون أن يبين لماذا كان قليل الحظ من

الا تفادة . فقد يكون هذا عن عدم معرفة الوسائل ، أو لضعف عن استخـدام هذه الوسائل . كما قد يكون للترفع عن الأسلحة الملوثة والوسائل الهابطة . وهذا هو الذي كان ، وكان حقيقاً بالبيان .

إن معاوية وزميله عمراً لم يغلبا علياً لأنهما أعرف منه بدخائل النفوس ، وأخبر منه بالتصرف النافع في الظرف المناسب . ولكن لأنهما طليقان في استخـــدام كل سلاح ، وهو مقيد بأخلاقه في اختيار وسائل الصراع . وحين يركن معاوية وزميله إلى الكذب والغش والخديعـة والنفــــاق والرشوة وشراء الذمم لا يملك علي أن يتدلى إلى هذا الدرك الأسفل . فلا عجب ينجحان ويفشل ، وإنه لفشل أشرف من كل نجاح .

على أن غلبة معاوية على علي ، كانت لأسباب أكـبر من الرجلين : كانت غلبة جيل على جيل ، وعصر على عصر ، واتجاه على اتجاه . كان مـدّ الروح الاسلامي العالي قد أخذ ينحسر . وارتد الكثيرون من العرب إلى المنحدر الذي رفعهم منـه الاسلام ، بينما بقي علي في القمة لا يتبع هذا الانحسار ، ولا يرضى بأن يجرفه التيار . من هنا كانت هزيمته ، وهي هزيمة أشرف من كل انتصار .

★ ★ ★

وهنا نصل إلى الملاحظـــــة الرابعـة . إذ نرى المؤلف يهش لروح النفعية في السياسة ، ويشيد بأصحابها ، ولا يعترف بغير النجاح العملي ، ولو على أشلاء المثل العليا والأخلاق .

ونحن لا نتجنى على الأستاذ شفيق جبري بهذه الكلمات . فاسمعه يقول عـــــن « خديعة المصاحف » : « وعلى كل حال فان هذه الخديعـة التي أوحى إلى صاحبها بها علم النفس . كان فيها حقن دماء المسلمين ، وخديعة فيها منتهى حرب ومنتهى دماء ، إنما هي خديعة خير » !!!

من هذا التعليق ، ومن إشادته بمعاوية في كل موضع نحس شديد إعجابـــــه بسياسة معاوية . وقد عرفنا من قبل رأيه في ترفع علي .

ونحن نأخذ على المؤلف هذا الاتجاه الخطر . فما كانت خديعة المصاحف ولا سواها خديعة خير . لأنها هزمت علياً ونصرت معاوية . فلقد كان انتصار معاوية هو أكبر كارثة دهمت روح الاسلام التي لم تتمكن بعد من النفوس . ولو قد قدر لعلي أن ينتصر لكان انتصاره فوزاً لروح الاسلام الحقيقية : الروح الخلقية العادلة المترفعة التي لا تستخدم الأسلحة القذرة في النضال . ولكن انهزام هذه الروح ولما يمض عليها نصف قرن كامل ، وقد قضي عليها فلم تقم لها قائمة بعد ـ إلا سنوات على يد عمر بن عبد العزيز ـ ثم انطفأ ذلك السراج ، وبقيت الشكليات الظاهرية من روح الاسلام الحقيقية .

لقد تكون رقعة الاسلام قد امتدت على يدي معاوية ومن جاء بعده . ولكن روح الاسلام قد تقلصت ، وهزمت ، بل انطفأت .

فأن يهش إنسان لهزيمة الروح الاسلامية الحقيقية في مهدها ، وانطفاء شعلتها بقيام ذلك الملك العضود ... فتلك غلطة نفسية وخلقية لا شك فيها .

على أننا لسنا في حاجة يوما من الأيام أن ندعو الناس إلى خطة معاوية . فهي جزء من طبائع الناس عامة . إنما نحن في حاجة لأن ندعوهم إلى خطة علي ، فهي التي تحتاج إلى ارتفاع نفسي يجهد الكثيرين أن ينالوه .

وإذا احتاج جيل لأن يدعي إلى خطة معاوية ، فلن يكون هو الجيل الحاضر على وجه العموم . فروح « مكيافيلي » التي سيطرت على معاوية قبل مكيافيلي بقرون ، هي التي تسيطر على أهل هذا الجيل ، وهم أخبر بها من أن يدعوهم أحد إليها ! لأنها روح « النفعية » التي تظلل الأفراد والجماعات والأمم والحكومات !

وبعد فلست « شيعياً » لأقرر هذا الذي أقول . إنما أنا أنظر إلى المسألة من جانبها الروحي الخلقي ، ولن يحتاج الانسان أن يكون شيعياً لينتصر للخلق الفاضل المترفع عن « الوصولية » الهابطة المتدنية ، ولينتصر لعلي على معاوية وعمرو . إنما ذلك انتصار للترفع والنظافة والاستقامة .

ويخطىء من يعتقد أن النجـــاح العملي هو أقصى ما يطلبـه الفرد وما تطلبه الانسانية . فذلك نجاح قصـير العمر ينكشف بعد قليل ، والأستاذ شفيق جـبري يتفق معنا في هذه النتيجة النظرية — وإن لم يطبقها على أحكامه — فقـــد قال في نهاية الكتاب :

« فان السياسة التي لا خلق لها إنما هي سياسة لا تلبث أن تتلاشى كما يتلاشى الدخان في الفضاء . وما نجحت سياسة بعض رجال العرب في الماضي ، مثل الذين أتيت على ذكرهم إلا لأن أصحابها كانوا على خلق عظيم . وكانوا زيادة على ذلك عالمـين بأسرار النفوس ، واقفين على حقائق الطبائع ، مطلعين على خفايا الأمزجة .

« فاذا تجرد رجال السياسة من الأخـلاق ومن معرفـة نفوس الناس ، ضاعت سياستهم ، وضاع الناس ، وضاعت البلاد في وقت واحد » .

كلام صادق مسلم به عند التعميم . نختلف عليه مع الأستاذ عند التطبيق « ولكل وجهة هو موليها » وله الشكر على كل حال أن أثار هذه الخـواطر والتعليقـات في هذا الموضوع القيم الدقيق .

★ ★ ★